ما أشبه الليلة بالبارحة ؟

مكر يهـــود

الأستاذ عمر الخطيب

[إن في العار الذي ينال رؤوس العرب ، وإن في العار الذي ينال رؤوس اليهود ، لمادة ثرة للخيال البارع ، ومداداً فياضاً للقلم الخالق]

« الأستاذ الزيات »

على البطاح المطلة على (يثرب) ، وبين تلك الشعاب البيض التي تعج بالرمال ، وتنام في أحضان الجبال ، تسكن قبيلتان جمعت بينهما وشائج القربى وأواصر النسب ، وفرقت بينهما شريعة الصحراء ، والجاهلة الجهلاء ، هما (الأوس والخزرج) اللتان استفحل العداء بينهما ، وأكل قلوب زعمائهما وأودى بهما إلى حروب طاحنة ومعارك دامية ، أرثت بينهما نوازع الشر ، والتهمت الشباب الغض ، حتى أصبحوا لا يفترقون من وقعة حتى تجمع بينهما أخرى ، وما يجف الدم من معركة حتى يسيل ثانية ويفور :

إذا افترقوا من وقعة جمعتهم دماء لأخرى ما يطل نجيعها

وآخرها تمخضت عنه هذه الأحداث النكراء ، والترات الدكناء حرب كبرى لم يشهد العرب لها مثيلاً ، أورت الجزيرة بزناد الفتنة ، وشطرت العرب أشطاراً متناحرة ، وجعلتهم أحزاباً متنافرة ، تلك هي حرب (بُعاث) التي تجندل في حومتها الفرسان وسارت بحديثها الركبان ، والتي كان للشعراء فيها معارك أخرى ليست الألسنة فيها بأقل إيلاماً من السيوف ، ولا القصائد بأدنى تأثيراً من السهام ! وإذا كان السيف المهند يطيح بالرأس ، والسهم المريش يزهق النفس ، فإن اللسان المعضب يخدش العرض الكريم بالمذمة ، والقريض القوي يطعن الأنف الحمي بالمهانة ...

***

ولما أن ظهر في الجزيرة (محمد) يحمل رسالة الله وشرعة الحق ، ويدعو العرب إلى دين الإخاء والمساواة ، ومبدأ العدالة والنور ، استشار العربُ أحبار اليهود في أمر هذا النبي الجديد وقالوا لهم : « يا معشر يهود ! إنكم أهل الكتاب الأول ، وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالت اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه »[1] . فخالفوا بذلك شريعة التوحيد ، وناقضوا تعاليم التوراة .

بيد أنه لم يمض غير قليل حتى اشتد أزر هذا الدين ، وقوى ساعد هذه الدعوة ، والتف العرب حولها ، واستبسلوا في سبيلها ، إذ كانت حمامة السلام بين القبائل المتلاحمة ، والأحزاب المتخاصمة طمست من بينهم معالم الشر ، وأطفأت نار الحرب ، وجعلت من هؤلاء الأعراب الجفاة خير عون وأقوى نصير ، وإذا بالأوس والخزرج تتآخيان بعد التلاحي ، وتتصافيان بعد التجافي ،

العربي كله يضج بسبب طول أناة الجامعة ومراعاتها إحساس بعض الدول الكبرى وخاطر مجلس الأمن ، وقد علمنا أن مجلس الأمن كهيئة الأمم مؤتمر للصوفية . ونفهمنا أن الإنجليز الذين يتظاهرون بالعطف على العرب أحياناً وبالعطف على اليهود أخرى هم أروغ من ثعلب . فحتى متى تصبر الجامعة على هذا المكر الدولي ؟

اليهود ينقضون الهدنة كل يوم ، فهذا يسوغ لنا أن ننقضها أيضاً وأن توعز الجامعة إلى الجيوش العربية أن تنقض على اليهود في فلسطين في وقت واحد ، وتقذف بهم إلى بحر تل أبيب ، فتخلص البلاد من شرهم وتحرر إخواننا العرب الذين وقعوا بين براثنهم في يافا وحيفا وعكا .

كفى ياسادة صبراً وأملا بالسراب ! إن كنتم تحسبون حساباً لمساعدة الدول العظمى لليهود فخير لنا أن ننكسر في حرب تشنها كل الدول علينا من أن ندع السرطان الإسرائيلي يتغلغل في بلادنا ويقضي على حريتنا قضاء مبرماً . الانهزام في حرب دولية ولا الاستخذاء للصهيونية ...

نفولا الحداد

(١) يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون في كتابه (تاريخ اليهود في بلاد العرب) : « كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش ، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي ، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم ... »

وتسيران معاً فى ركاب هذا الدين الجديد ، تحت قيادة الرسول العظيم ...

ولما هاجر إلى المدينة كانوا (أنصاره) الصادقين ، وأصحابه المخلصين ، آمنوا به وآزروه ، وعاهدوه على أن ينصروه ، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم وأنفسهم ، واستقبلوا إخوانهم المهاجرين أحسن استقبال ، وأنزلوهم خير منزل حتى ليقول عبد الرحمن بن عوف فى حديث له : « آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وآخى بينى وبين سعد بن الربيع فقال سعد بن الربيع : إنى أكثر الأنصار مالاً ، فأقسم لك نصف مالى ، وانظر أى زوجتىّ هويت ، نزلتُ لك عنها ، فإذا حلّت تزوجتها ... »

وهكذا تكوّن من هؤلاء جيش الإسلام الأول وفرسانه الكماة وأبطاله المغاوير الذين بذلوا فى سبيله أموالهم وأرخصوا أرواحهم ، حتى أعزه الله ، وساد الجزيرة ، وعم صداه أرجاء المعمورة ...

* * *

نهد (يهود) هذا التحالف القوى والإخاء المتين ، وأوجسوا شراً من هذا الدين ، وأجمعوا على الكيد بمحمد ، والمكر بأصحابه لأنهم علموا أن هذا الدين — لا محالة — سيعلو ، وإن هذا الرسول سيقوى ، وإن القوة ستحمى ذمار الحق حتى ينتصر ويسود ، ولما أنهم (أهل كتاب) يعلمون صدق الرسول فى دعواه ، يئسوا من القضاء على دعوته ، واتفقوا على المكر به وبصحابته ، واليهود أبطال الكيد فى الخفاء ، وأهل الخيانة والمكر ، لا تعجزهم الحيل ، ولا يتورعون عن الغدر !

أما من حيث مكرهم برسول الله ، فقد حرّضوا (لبيد بن الأعصم) الذى اشتهر بعداوته للرسول وشدة البغض له فسحره ، بيد أن جبريل أخبره بذلك السحر ومكانه ، ورد الله كيد الخائنين ، وعفا رسول الله عن لبيد وقال : « أما أنا فقد عافانى الله ، وكرهت أن أثير على الناس شراً » (يعنى بقتله) .

وأرادوا بعد ذلك أن يمكروا بأصحاب الرسول ويفرّقوا جمعهم ، حتى ينقضوا عن (محمد) ويعتزلوا دينه ، فيبقى وحده فى الميدان دون نصير يمنعه ويؤيده ، بعد أن كذّبته (قريش) ، واشتدت فى إيذائه ، وأجمعت على قتله ، وتفريق دمه بين القبائل ، فلبثوا يرتقبون الفرص ، ويحيكون الدسائس ...

* * *

خرج (شاس بن قيس) ، وهو من أحبار اليهود وزبانيتهم يجوب فى أطراف يثرب يوماً وحوله بعض أعوانه ، وقد بيّت فى نفسه شراً ، بعد أن ضاقت به الحيل ، وتقطعت به أسباب المكر ، فألفى (الأنصار) مجتمعين ، وقد رفرف فوقهم طائر اليمن والخير مستبشرة نفوسهم ، متهللة أساريرهم ، ترقص قلوبهم طرباً بهذا (الإسلام) الذى جمع بينهم ، ووحد صفوفهم ، وأزال من بينهم الضغائن والإحن وأبدلهم بها حباً وإخاء ، وألف بين قلوبهم برابطة الإيمان ، فأصبحوا بنعمته إخواناً ...

شهد هذا اليهودى الماكر ، هذا المجلس الهادئ ، فغاظه صلاح ذات بينهم ، وقال : « قد اجتمع بنو قيلة[1] والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار » . وأزمع على أن يمكر صفوهم ، ويوقع بينهم ، فرجع بذهنه إلى يوم (بُعاث) ، وما كان فيه بينهم من هجاء وعداء ، فوجد فيه مجالا للاستغلال ، وموطناً لإثارة الأحقاد الدفينة ، وأيقن أنه يستطيع أن ينفض مجلسهم ، ويحرك أنفسهم ، حتى تعود الخصومة بينهم أشد مما كانت ، فتفل عزائمهم ، وتحل روابطهم ... ويرجعوا أقواماً متلاحين ، وقبائل متخاصمين ، ويتفرقوا عن (محمد) ، ويتخلوا عن تأييد رسالته ، وهذا ما تتقطع دونه أعناق يهود ، وينفقون فى سبيله أعز ما لديهم ...

التفت هذا الغادر إلى واحد من أعوانه فوسوس إليه : أن يعمد إلى مجلس (الأنصار) فيجلس معهم ثم يذكر يوم (بُعاث) وينشدهم قصائد شعرائهم ، ويعمل على المكر بهم ، والقضاء على إلفتهم ...

* * *

لم يدر (الأنصار) كيف تسلل إليهم هذا اليهودى الخبيث ولم ينتبهوا لمهمته ، ولم يتيقظوا لمكيدته ، فوقف بينهم يذكر يوم (بعاث) ، وينشدهم ما كانوا يتقاولون به من أشعار ، ويؤلّب الأوس على الخزرج ، حتى وقعت الواقعة ، فذكر القوم ذلك اليوم ، وتنازعوا وتفاخروا ، وأنشد كل أقوال شاعرهم ، ونادى

(١) هو اسم أمهم قيلة بنت كاهل .